بلاغة الإيجاز في سورة الناس

أ. أم كلثوم حويشي[1، *]

[1] جامعة باتنة 1الحاج لخضر - الجزائر

تاريخ الإرسال: 2018/06/20 ؛ **تاريخ القبول :** 2019/05/29 ؛ **تاريخ النشر :** 2019/09/17

ملخص: تضمنت سورة الناس بيانا لمنهج الاستعاذة الحقيقية من الشرور كلها الظاهرة والخفية التي تصيب الإنسان، ولا يمكن له دفعها ولا سبيل لذلك إلا باللجوء إلى الله عز وجل. واقتضت طبيعة السورة أن تشتمل على استعاذة، ومستعاذ به، ومستعاذ منه، فكان طلب العون والالتجاء بالرب، والملك، والإله، وفي ذلك إعلان عن ضعف الإنسان وقلة حيلته وحاجته لربه ليخلصه من شر كل وسواس خناس، وكان ذلك كله بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا ودخل تحت الشر المستعاذ منه.و يهدف المقال إلى دراسة بلاغة الإيجاز في سورة الناس، والكشف عن تجليات هذه الظاهرة اللغوية في السورة.

الكلمات المفتاحية : الإيجاز، القرآن الكريم، سورة الناس، الإستعاذة.

Le résumée: La sourate 114 al-Nas se caractérise par l'emploi de mots bien définis qui renvoient a plusieurs sens et explications. Elle démontre explicitement la protection qu'implore l individu de son créateur son seigneur et son souverain qui le protège de tous les maux endogènes et exogènes .L' individu se rèfugie auprès du seigneur des gens , le seul capable de repousser le mal des suggestions maléfiques.Le souverain des gens, celui qui régit toutes leurs affaires et qui se passe largement d eux.Le dieu des gens, la seule divinité qui mérite d êtreadorée

Keywords: Le coran al-Nas, Rhétorique, concision

[*] المؤلف المرسل: djamaa@live.com

إن تراث الأمم يعتمد على روحها وخصائصها ومثلها وأخلاقها، وتراث الأمة العربية يعتمد على إنتاجها الفكري منذ الجاهلية، والقرآن يمثل روحها فهو الكلام الذي عجزت عن محاكاته عقول البشر، فهو النبع الحي للبلاغة العربية وبيانها، وإذا أغفل الإنسان علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف، وضمنّه من الحلاوة وجلّله من رونق الطلاوة مع سهولة كلمه، وجزالتها، وعذوبتها، وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها[1]. فكان النص القرآني معجزا لكل القرائح والعقول مهما أوتيت من حكمة ورجاحة عقل،ومن مظاهر ذلك الإعجازالإيجاز الذي يظهر جليا في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ونخص بالدراسة سورة الناس رغبة في الإجابة على السؤال الآتي: فيما تكمن بلاغة الإيجاز في سورة الناس ؟

لقد كانت بداية الاهتمام بكثير من الوجوه البلاغية مع منتصف القرن الثاني للهجرة واستمرت الجهود البلاغية بالبحث والتنقيب والتجديد والتطور حتى القرن السابع للهجرة على وجه التقريب، وعُنيت الجهود اللاحقة فيما بعد بالتمثيل والتوثيق والتثبيت والتصنيف المسهب المفيد حتى القرن العاشر للهجرة، على أن كثيرا من الجهود اللاحقة قد أصيبت بالاستقرار، فانتقلت إلى مهمات النقل والاستعراض والتلخيص[2].

ومما لاشك فيه أن كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ من أقدم الكتب التي تؤسس لعلم البلاغة العربية، وهذا ما ذكره ابن خلدون في مقدمته على نحو ما سمعه من شيوخه:« أن أصل هذا الفن (البلاغة) وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها»[3].

ولعل الجاحظ هو أبرز من بدأ يعني بالإيجاز عناية أدبية، فأشار إليه في مواضع عديدة من كتابيه:"الحيوان" و"البيان والتبيين"، فقال: «وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى»[4].وقال أيضا: «وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيرة ومعناه في ظاهر لفظه»[5].

ومن أبرز الإشارات وأعمقها أثرا على تطور مفهوم الإيجاز قول ابن المقفع حين سئل عن البلاغة، فقال:« البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة»[6].فجعل ابن المقفع بقوله هذا الإيجاز هو البلاغة، وأقام البلاغة كلها عليه، وفي هذا إشارة إلى القيمة البلاغية للإيجاز في الكلام.

ويسمي قدامة بن جعفر الإيجاز إشارة في كتابه "نقد الشعر"، حيث يقول: « وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة، بإيماء إليها، أو لمحة دالة عليها، كما قال بعضهم وقد وصف البلاغة، فقال: هي لمحة دالة»[7].

ويخصص أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" الباب الخامس في فصلين مستقلين يتحدث في أولهما عن الإيجاز والمساواة، وفي الثاني عن الإطناب، إذ يقول في ذكر الإيجاز:« قال أصحاب الإيجاز:الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة، وماتجاوز مقدرا الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخطل، وهما من أعظم أدواء الكلام وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة، وفي تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحي لكتّابه، إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا»[8].

ويجعل ابن سنان الخفاجي في كتابه«سر الفصاحة» الإيجاز، والاختصار، وحذف فضول الكلام شرطا من شروط الفصاحة والبلاغة على حدّ سواء، فيقول:« ومن شروط الفصاحة والبلاغة الإيجاز، والاختصار، وحذف فضول الكلام حتى يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وهذا باب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عن أكثر الناس حتى أنهم إنما يستحسنون من كتاب الله ما كان بهذا الصفة»[9].ويضيف في موضع آخر:«نذهب إلى أن المحمود من الكلام ما دلّ لفظه على معناه دلالة ظاهرة ولم يكن خفيا مستغلقا...فإنّ الكلام الموجز لا يدل على معناه دلالة ظاهرة فهو عندنا قبيح مذموم، لا من حيث كان مختصرا، بل من حيث كان المعنى فيه خافيا»[10].

وفي قول ابن سنان الخفاجي إشارة إلى الإيجاز المحمود وبيان له، وقد سبق ابن قتيبة فيكتابه"أدب الكاتب" إلى التنبيه للإيجاز المحمود فقال:«... وهذا-الإيجاز-ليس بمحمود في كل موضع ولابمختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، ولو كان الإيجاز محمودا في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام.... وليس يجوز لمن قام مقاما في تحضيض على حرب، أو حمالة بدم، أو صلح بين عشائر أن يقلل الكلام ويختصره، ولا لمن كتب إلى عامة كتابا في فتح أو استصلاح أن يوجز»[11].فجعل ابن قتيبة الإيجاز محمودا في مواضع وغير محمود في أخرى.

وذهب السكاكي في كتابه « مفتاح العلوم» إلى كون الإيجاز والإطناب نسبيين فقال:« أما الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين لا يتسير الكلام فيهما إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عُرفي مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم ولابد من الاعتراف بذلك مقيسا عليه، ولنسمه متعارف الأوساط وأنه في باب البلاغة لا يحمد منه ولا يذم، فالإيجاز هو أداء المقصود بأقل من عبارات متعارف الأوساط، والإطناب هو أداؤه بأكثر من عباراتهم سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل»[12]. وعليه فالإيجاز أداء المقصود بأقل من عبارات متعارف الأوساط، والإطناب ماكان ضد ذلك.

وعرّف القزويني في كتابه« الإيضاح في علوم البلاغة» المساواة والإيجاز والإطناب بقوله:« هو تأدية أصل المراد بلفظ مساوله، أو ناقصا عنه واق، أو زائد عليه لفائدة»[13].فالأول مساواة، والثاني إيجاز، والثالث إطناب. وأما ابن الأثير فقد أعلى من شأن الإيجاز حين عرّفه بقوله: «هو حذف زيادات الألفاظ وهو نوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة من سبق إلى غايتها وما صلى وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلى، وذلك لعلو مكانه وتعذر إمكانه، والنظر فيه –الإيجاز-إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ، ولست أعني بذلك أن تهمل الألفاظ بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة بل أعني أن مدار النظر في هذا النوع إنما يختص بالمعاني، فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير، ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل، ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم بكثرتها، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها»[14]، فقرن ابن الأثير مفهوم الإيجاز بالكمية ككثير من سبقوه، وإلى مثله أشار العلوي صاحب "الطراز" حين دافع عن اقتصار الإيجاز على خاصة الناس ذوي الأفهام الثاقبة والعقول الراجحة، فقال:« وما زعموه من إفهام العامة فإن إفهامهم ليس شرطا معتبرا ولا يعول عليه، ولو جاز ترك الإيجاز البليغ لأجل إفهام العوام لجاز ترك الألفاظ الفصيحة والإتيان في الكلام بألفاظ العامية المألوفة عندهم »[15].وبهذا جعل العلوي الإيجاز مختصا بذوي الأفهام الثاقبة دون غيرهم من عامة الناس، وهذا ما ذكره القزويني في معرض حديثه عن بلاغة الكلام، فقال:« وأمّا بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة فمقام تنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يُباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام»[16].

أما الرماني فجعل البلاغة على عشرة أقسام، وجعل الإيجاز أولها، وهو أول من التفت إلى مسألة الإيجاز في الدرس البلاغي وعلوم القرآن الكريم التفاتة مفصلة ومستقلة ومنهجية حين قسم الإيجاز إلى نوعين: الإيجاز والحذف[17]، وقد عرف الإيجاز بقوله: « تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز».[18]ويقول في موضع آخر:« والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير، والإيجاز والإكثار إنما هما في المعنى الواحد، وذلك ظاهر في جملة العدد وتفصيله كقول القائل: لي عنده خمسة وثلاثة واثنان في موضع عشرة»[19].

فقد ربط الرماني بين اللفظ والمعنى ربطا كميا في تعريفه للإيجاز، وكأنه جعل الذكر والإطالة والإيجاز بمرتبة واحدة شرط أن يؤديا المعنى نفسه، ولكنه يجعل الإيجاز بنوعيه الحذف والقصر أبلغ من الذكر في مواضع أخرى[20]. أما عبد القاهر الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز»، فيقول:« ترك

الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن»[21]، وفيما سبق تأكيد على بلاغة الإيجاز وفائدته العظيمة في الإفصاح والإبانة عن المعاني بأقل قدر من الألفاظ.

والإيجاز بإيجاز هو كل ما قل لفظه وكثر معناه وبالتالي كثرت دلالاته، وهي مسألة في المعاني بقدر ما هي في المباني، وقد يكون هذا في الكلام القصير، أو في التشبيه، أو في الاستعارة، أو في أي وجه بلاغي آخر، وهو ليس الكلام القصير بالمطلق بل هو القصير قياسا بالمعنى الوفير والغزير، فيمكن للإيجاز أن يكون مطولا في لفظه إذا كان هذا الكلام يتضمن معاني كثيرة لا تفوق الألفاظ.

والحقيقة أن الإيجاز يقوم على قاتمتين: وفرة المعاني التي يحملها اللفظ نفسه، ووفرة الدلالات التي يجيزها اللفظ، فقصر اللفظ لا يمكن تحديده بالمطلق بعدد الألفاظ في الكلام بل بالقياس إلى وفرة معانيه، فهناك من الكلام المختصر في لفظه مالا يؤدي معاني كثيرة، وهذا ما يقربه من حدود المساواة وإن كان الكلام مختصرا...وإن تحديد المعاني القاموسية المعيارية والسياقية التي يلتزم اللفظ بها هو ما يحقق البعد الكمي في الإيجاز، أما الدلالات التي قد يقترحها القارئ بجهده وتجربته المتراكمة فبهايتحقق البعد الكيفي في الإيجاز، غير أن القارئ وإن كان على قدر كبير من المعرفة لا يستطيع أن يتجاوز المعاني النصية إلى الدلالات القرائية إلا إذا كانت الألفاظ تسمح بذلك في الأصل[22].

والإيجاز ضربان، أحدهما إيجاز القصر: وهو ما ليس بحذف كقوله تعالى:﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[البقرة: 179]، فإنه لا حذف فيه مع أن معناه كثير يزيد على لفظه، لأن المراد أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل كان ذلك داعيا له قويا إلى أن لا يقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو قصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، فكان في ارتفاع القتل حياة لهم[23].

ويرى ابن الأثير في كتابه « المثل السائر» أن التنبه لهذا النوع من الإيجاز عسر لأنه يحتاج إلى فضل تأمل وطول فكرة لخفاء ما يستدل عليه، ولا يستنبط ذلك إلا من رست قدمه في ممارسة علم البيان وصار له خليقة وملكة.... ومن أمثلة الإيجاز بالقصر قوله تعالى:﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف:199]. فجمع الله في الآية جميع مكارم الأخلاق، لأن في الأمر بالمعروف: صلة الرحم، ومنع اللسان عن الغيبة وعن الكذب، وغض الطرف عن المحرمات وغير ذلك، وفي الإعراض عن الجاهلين: الصبر والحلم وغيرهما[24].

وأطلق الزركشي على هذا النوع من الإيجاز اسم «الوجيز باللفظ» وعرفه بقوله:«الوجيز باللفظ أن يكون اللفظ بالنسبة إلى المعنى أقل من القدر المعهود عادة وسبب حسنه أنه يدل على التمكن في الفصاحة»[25].

-أما النوع الثاني فهو إيجاز الحذف: وهو ما يكون بحذف، والمحذوف إما جزء جملة أو جملة أو أكثر من جملة، والأول إما مضافا كقوله تعالى:﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[يوسف:82]، أي أهلها، وكقوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾[المائدة: 03]، أي تناولها، وإما موصوف كقوله: « أنا ابن جلا وطلاع الثنايا» أي أنا ابن رجل جلا، وإما صفة نحو قوله تعالى:﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[الكهف:79]، أي كل سفينة صحيحة أو صالحة [26].

والإيجاز الذي يحظى باهتمامنا في هذه الدراسة هو ما قام على حذف معنوي -وليس لفظي- فيما ورد في سورة الناس التي تضمنت استعاذة ومستعاذا به ومستعاذا منه.

1-الاستعاذة:

تضمنت سورة الناس استعاذة، ومستعاذا به، ومستعاذا منه، والمتأمل في السورة يلفت سمعه بداية قوية تمثلت في فعل الأمر قُلْ المصحوب بقوة جرسه وما يملكه من إيحاء.فالقافبجرسها القوي تعلن عن حاجة الإنسان إلى ربه جل وعلا، فهو في حاجة إلى إعانة الله وهذا ما جسدته كلمة « أعوذ».

واعلم أن لفظ«عاذ» وما تصرف منها يدل على التحرز والتحصن والنحاة، وحقيقته معناها الهروب من الشيء تخافه إلى من يعصمك منه، وبهذا سمي المستعاذ به معاذًا كما سمي ملجأ، وفي أصله قولان:

-أحدهما: أنه مأخوذ من الستر، تقول العرب للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتربها عوذ، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها سموه عوذا.

- والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة، تقول العرب للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه عوذا لأنه اعتصم به واستمسك به، والقولان حق والاستعاذةتنتظمهما معا، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه متمسك به معتصم به قد استمسك قلبه به ولزمه كما يلزم الولد أباه[27].

وقد اشتملت كل من سورة الفلق وسورة الناس على أمر بالاستعاذة إلا أن المستعاذ به في السورة الأولى- الفلق-مذكور بصفة واحدة وهي رب الفلق، والمستعاذمنه ثلاثة أنواع من الآفات وهي الغاسق، والنفاثات، والحاسد. وأما المستعاذ به في السورة الثانية- الناس- مذكور بصفات ثلاثة وهي الرب، والملك، والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة. والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت[28].

وقد جاء طلب العون بالفعل "أعوذ" دون "أستعيذ"، ذلك أن السين والتاء دالة على الطلب، فقولك أستعيذ بالله أي أطلب العياذ به، كما إذا قلت أستخير الله أي أطلب خيرته، فدخلت على الفعل إيذانا لطلب هذا المعنى من المعاذ، فإذا قال المأمور أعوذ بالله فقد امتثل ما طلب منه لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام، وفرق بين الالتجاء والاعتصام وبين طلب ذلك، فلما كان المستعيذ هاربا ملتجئا معتصما بالله أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك... ولهذاجاء عن

النبي ﷺ، في امتثال هذا الأمر أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأعوذ بكلمات الله التامات...دون أستعيذ[29]،فكان طلب الالتجاء معلنا عن حاجة الإنسان لربه ليُخلصه من شر يترصده. وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه« الوسواس»« الخناس» الذي يوسوس في صدور الناس»، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعا[30]، فقد وصف بأعظم صفاته وأشدها شرا وأعمها فسادا ألا وهي الوسوسة، وقد حدد مقرها وفي ذلك سر بديع يقول فيه ابن القيم:« وتأمل السر في قوله:﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ولم يقل في قلوبهم،والصدر ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب[31]، فكان الصدر محل الوسوسة.

2- المستعاذ به:

إن المستعاذ به هو الله وحده، رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إله الناس الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه.وقد أخبر الله تعالى في كتابه عمّن استعاذ بخلقه أنّ استعاذته زادته طغيانا ورهقا، فقال حكاية عن مؤمني الجن:﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:6][32].

وجاءت الاستعاذة في سورة الناس باسم الرب، والملك، والإله، وذكر «رب الناس» على التخصيص لوجوه، أما أحدها: أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم.

وثانيها:أن أشرف المخلوقات في العالم هم الناس.

وثالثها: أن المأمور بالاستعاذة هو الإنسان، فإذا قرأ الإنسان هذه السورة فكأنه يقول: يا رب، يا مكلي، يا إلهي[33]، فاشتملت السورة بذلك على إضافات ثلاث:

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية إلى الناس، والمتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه ودفع الشر عنهم وحفظهم مما يفسدهم. وهذا معنى ربوبية الله للناس، كما تتضمن قدرته التامة، ورحمته الواسعة، وإحسانه، وعلمه بتفاصيل أحوالهم وإجابة دعواتهم وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك، فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثم ومعاذهم وملجؤهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلهية، فهو إلاههم الحق، ومعبودهم الذي لا إلاه لهم سواه، ولا معبود لهم غيره [34].فقد رتبت أوصاف الله ترتيبا مدرجا فإن الله خالق الناس، ثم هم غير خارجين عن حكمه

إذا شاء أن يتصرف في شؤونهم، ثم زيد بيانا بوصف إلهيته لهم ليتبين أن ربوبيته لهم وحاكميته فيهم ليست كربوبية بعضهم بعضا وحاكمية بعضهم في بعض.

وفي هذا الترتيب إشعار أيضا بمراتب النظر في معرفة الله تعالى، فإن الناظر يعلن بادئ ذي بدء بأن له ربا بسبب ما يشعر به من وجود نفسه ونعمة تركيبه، ثم يتغلغل في النظرفيشعر بأن ربه هو الملك الحق الغني عن الخلق، ثم يعلم أنه المستحق للعبادة فهو إله الناس كلهم[35].

وقُدّمت الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخرت الإلهية لخصوصها لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده واتخذه دون غيره إلها، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن ترك إلهه الحق واتخذ إلها غيره. ووسطت صفة الملك بين الربوبية والإلهية، لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره فهو المطاع إذا أمر، وملكه له تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكهوتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق، الملك الحق، إله الحق، خلق الناس بربوبيتهم وقهرهم بملكه واستعبدهم بالإلهيته....[36]، فكانت هذه السورة بما اشتملت عليه متضمنة قواعد الإيمان، ومعاني أسماء الله الحسنى، فالرب هو القادر الخالق البارئ، المصور الحي القيوم... وأما الملك فهو الآمر الناهي، المعز، المذل، الذي يصرف أمور عبادة كما يجب ويقلبهم كما يشاء. . . وأما الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال[37].

وقد تكرر لفظ الناس خمس مرات، وفي تكراره في كل وصف يقتضي مزيد شرف للناس، ذلك أنه سبحانه وتعالى عرّف ذاته بكونه ربا للناس، ملكا للناس، إلها للناس. ولولا أن الناس أشرف مخلوقاته وإلا لما ختم كتابه بتعريف ذاته بكونه ربا وملكا وإلهالهم[38]،فكان شرفا للناس إضافة الربوبية والملك والألوهية، ولزاما عليهم عبادة الله فهو المستحق لها، وطاعته لأنها واجبة، وشكره فهو الأحق به لأنه القادر الخالق، البارئ، المعز، المذل، ذو الجلال والإكرام.

3-المستعاذ منه:

إن الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين، إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها فيكون وقع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالا بصاحبه، وإما شر واقع به من غيره وذلك الغير، إما مكلف، أو غير مكلف، إما نظيره وهو الإنسان أو ليس نظيره وهو الجني، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمى وغيرها.

وقد تضمنت سورة "الفلق" و"سورة الناس" الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه[39]. وموضوع سورة "الناس" التعوذ بالله عزوجل من وسوسة الشيطان، وقد تكرر حرف السين في كل آية

من آياتها، وتوالى في كلماتها حتى صرنا نسمع-عند تلاوتها-نغما يترجم لنا الوسوسة[40]، ذلك أن اللفظة القرآنية تسهم في أداء المعنى مصحوبة بقوة جرسها ونوع صيغتها وما تملكه من إيحاء، وهذه ميزة اللغة العربية فحروفها وأصواتها«واسعة الأفق، كاملة في مدرجها الصوتي، حسنة التوزيع للأصوات والحروف في هذا المدرج، متميزة المخارج والصفات، ثابتة الأصوات عبر القرون، يتوارثها جيل بعد جيل، متنوعة الوظائف، في بنية الكلمة، لكل نوع من الحروف والأصوات وظيفة في تكوين المعنى وتثبيت أصله وقراره وتنويع شكله وألوانه، مع تناسق بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعية وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة»[41].

وفي القرآن تكرار طبيعي خال من التكلف ويساير مقتضيات التعبير الفني،ونلحظه في أشكال متعددة، تارة في آية كاملة وثانية في جزء من العبارة وثالثة في أجزاء العبارة وحروفها. فالتكرار بشتى أنواعه يحدث نوعا خاصا من الإيقاع تستلزمه العبارة لأغراض فنية، ونفسية، واجتماعية، ودينية[42]، وقد تكرر حرف السين في السورة عشر مرات من ستين صامتا، والسين صامت مهموس لثوي احتكاكي يتم نطقه بأن يوضع طرف اللسان في اتجاه الأسنان ومقدمته في مقابل اللثة العليا في وضع يسمح بمرور الهواء محدثا احتكاكا [43]. وقد اختير هذا الصوت بصفة خاصة لإبراز تلك الوسوسة التييخافت بها أهل الجرائم والمكائد وبيان لما يلقيه الشيطان في روع الإنسان ليزين له بذلك ارتكاب المعاصي، فالسين أدل بجرسه الصوتي الاحتكاكي الهامس على تصوير حالة الهمس الخفي[44].

والوسوسة القول الخفي لقصد الإضلال، من وسوس إليه، ووسوس له أي فعل الوسوسة لأجله، وهي حديث النفس والشيطان بما لا نفع فيه ولا خير، والوسواس بالفتح يقال لما يقع في النفس من عمل الشر ومالا خير فيه، ولما يقع من عمل الخير إلهام[45].وأصل الوسوسة الحركة أو الصوت الخفي الذي لا يحس فيحترز منه، فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد، ومنه وسوسه الحلي وهي حركته الخفية في الأذن[46].

والتعريف في "الوسواس" تعريف الجنس، وإطلاق "الوسواس" على معنييه الحقيقي والمجازي يشمل الشياطين التي تلقي في أنفس الناس الخواطر الشريرة لقوله تعالى:﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾[طه:120].ويشمل الوسواس كل من يتكلم كلاما خفيا من الناس وهم أصحاب المكائد والمؤامرات المقصود منها إلحاق الأذى من اغتيال النفوس أو سرقة أموال أو إغراء بضلال[47].

وإطلاق المصدر في قوله« الوسواس» بالفتح، دون اسم الفاعل "الموسوس" ذلك أن المصادر الرباعية تُعد أكثر الصيغ تعبيرا عن الحدث الذي تُرمز إليه، فالوصف بالمصدر أقوى من الوصف بالصفة، فالوصف بالمصدر يشعرك أن الموصوف صار في الحقيقة مخلوقا من ذلك الفعل، وذلك لكثرة تعاطيه له واعتياده إياه[48]. فساهم المصدر "الوسواس" في وصف تلك الوسوسة التي يخافت بها أهل المكائد وما يلقيه الشيطان في روع الإنسان ليزين له ارتكاب المعاصي والآثام، فكان أدل بجرسه

الصوتي على ذاك الهمس الخفي.

وقد اختيرت صيغة المبالغة "الخناس" دون "الخانس" أو "المُخنس" إيذانا بشدة هروب الموسوس ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله[49]، فصيغة الخناس ومافيها من تشديد وتأكيد وما تحدثه من حبس وضغط في النطق وعلى النفس، تشير وتوحي إلى الأذهان حالة الموسوس وعزمه على ما يريد- فالخناس شديد الخنس، والمراد به أنه صار له عادة، ومن صفات الشيطان" الوسواس الخنّاس"، وقيل سمي وسواسا لأنه يوسوس إلى الناس ويلقي في قلوبهم الوسوسة حتى يصير الإنسان مخبولا موسوسا... وسمي خناسا لأنه يوسوس فإذا ذكر الله خنس، أي تقبض فكف[50]فجاء وصفه بصيغة المبالغة"فعال" دون "فاعل" لأن صيغة «فعّال» تعد من أقوى صيغ المبالغة للدلالة على الشيء الذي يتكرر فعله أو الشيء الملازم لصاحبه حتى صار حرفة فلازمه في الوصف، والدلالة على لزوم الوصف وتكراره[51]، فكل من «فاعل» و« فعّال» تدل على أمرين: معنى مجرد هو الحدث وذات فعلته، ولكنها تختلفان بعد ذلك في درجة الدلالة على المعنى المجرد أي في مقدار قلته، وكثرته، وضعفه، وقوته، وهذا ما تنفرد به صيغة «فعَّال» دون « فاعل»[52]لتدل صيغة الخناس على تكرار فعل الوسوسة، فكلما يذكر الله يخنس الشيطان، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة فجاء بناء اللفظين مطابقا لمعنييهما.

وهكذا اشتملت سورة الناس على منهج الاستعاذة الحقيقية إذ بينت كيف يلجأ ويستجير العبد الضعيف بربه من كل شر يعترضه ومن كل موسوس خنّاس يوسوس له، فإن توسل العائذ وانتسابه إليه بالمربوبية والمملوكية والعبودية ينجيه من كل كيد ومكر يكادله.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

1. أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق محمد محيي الدين، المكتبة التجارية، مصر، ط4، 1963.
2. الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلاسي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، د-ط، تونس، 1980.
3. الإيجاز في الموروث البلاغي والقرآن الكريم، إبراهيم طه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2012.
4. الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
5. بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، تحقيق هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد، أشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط1، 1416هـ-1996م.

6. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية،بيروت،1376ه، 1957م.

7. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق حسن السندوبي، ط2، المطبعة الرحمانية، القاهرة، 1932.

8. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1(1420ه-2000م.

9. التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، مصر، 1426ه، 2005م.

10. التفسير القيم، ابن القيم الجوزية، تحقيق مكتب الدراسات والبحوث الإسلامية، بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار الهلال، بيروت، ط1، 1410ه.

11. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق سمير البخاري: دار عالم الكتب، السعودية، دط، دت.

12. الجدول في إعراب القرآن، محمود بن عبد الرحيم صافي، دار الرشيد، مؤسسة الإيمان، دمشق، ط4، (1418ه).

13. خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد، محمد المبارك، مطبعة نهضة مصر، 1960.

14. الدراسات الصوتية عند العلماء العرب، حسام البهنساوي، زهراء الشرق، القاهرة، ط1(2005).

15. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رضوان الداية، وفايز الداية، دار الفكر، دمشق، 2007.

16. الزينة في الكلمات الإسلامية، أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي، علق عليه حسين بن فيض الله الهمداني، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1958.

17. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي، القاهرة، 1969.

18. الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، 1981، بيروت، المقدمة.

19. الطراز، العلوي، مراجعة تدقيق محمد عبد السلام شاهين، درا الكتب العلمية، بيروت، 1995.

20. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الله أبو القاسم بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407ه.

21. الكليات، أبو البقاء الكفوفي، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت(1419ه-1998م).

22. لغة القرآن الكريم في جزءهم، محمود أحمد نحلة، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

23. المثل السائرة، ابن الأثير، تقديم وتغليق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار النهضة، القاهرة، 1960.

24. مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، (1421ه-2000م)، ط1.

25. مفتاح العلوم، السكاكي، المطبعة الأدبية، القاهرة، ط1، دت.
26. مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1399هـ، دار الفكر، 1979.
27. المقدمة، ابن خلدون، تحقيق على عبد الواحد وافي، ط2، دار النهضة، القاهرة، 1981.
28. نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.
29. النكت في إعجاز القرآن، الرماني، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

الهوامش والإحالات:

[1]_الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، 1981، بيروت، المقدمة.

[2]_الإيجاز في الموروث البلاغي والقرآن الكريم، إبراهيم طه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2012، ص 32.

[3]_المقدمة، ابن خلدون، تحقيق على عبد الواحد وافي، ط2، دار النهضة، القاهرة، 1981، ص 805.

[4]_البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق حسن السندوبي، ط2، المطبعة الرحمانية، القاهرة، 1932،1/90.

[5]_المرجع نفسه 97/1.

[6]_المرجع نفسه129/1، 130.

[7]_نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ص 153.

[8]_الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص 59.

[9]_سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي، القاهرة، 1969، ص 197.

[10]_المرجع نفسه، ص 198.

[11]_أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق محمد محي الدين، المكتبة التجارية، مصر، ط4، 1963، ص16.

[12]_مفتاح العلوم، السكاكي، المطبعة الأدبية، القاهرة، ط1، دت، ص 150.

[13]_الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، ص 180.

[14]_ المثل السائرة، ابن الأثير، تقديم وتغليق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار النهضة، القاهرة، 1960، ص 68/2.

[15]_ الطراز، العلوي، مراجعة تدقيق محمد عبد السلام شاهين، درا الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص 245، 246.

[16]_الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص 13.

(17)_الإيجاز في الموروث البلاغي، إبراهيم طه، ص 41.

(18)_النكت في إعجاز القرآن، الرماني، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص 70، 73.

(19)_المرجع نفسه، ص 74.

(20)_دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رضوان الداية، وفايز الداية، دار الفكر، دمشق، 2007، ص 111.

(21)_المرجع نفسه، ص 74، ومابعدها.

(22)_الإيجاز في الموروث البلاغي، إبراهيم طه، ص 76.

(23)_الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص 175.

(24)_المثل السائر، ابن الأثير، 74/2، 115/2.

(25)_البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية،بيروت،1376هـ، 1957م،221/3.

(26)_الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص 177، 178.

(27)_بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، تحقيق هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد، أشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط1، (1416هـ-1996م)، 427/2.

(28)_مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، (1421هـ-2000م)، ط، 182.1/32

(29)_بدائع الفوائد، ابن القيم، 428/2-429.

(30)_التفسير القيم، ابن القيم الجوزية، تحقيق مكتب الدراسات والبحوث الإسلامية، بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار الهلال، بيروت، ط1، 1410هـ، (320/2).

(31)_المرجع نفسه، 321/2.

(32)_بدائع الفوائد، ابن القيم، 430/2.

(33)_مفاتيح الغيب، الرزاي، 180/32.

(34)_التفسير القيم، ابن القيم، 310/2.

(35)_التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1(1420هـ-2000م، 554/30 وأنظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الله أبو القاسم بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ، 823/4.

(36)_ التفسير القيم، ابن القيم، 312/2، أنظر الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق سمير البخاري: دار عالم الكتب، السعودية، دط، دت، 260/20.

(37)_التفسير القيم، ابن القيم، 313/2.

(38)_مفاتيح الغيب، الرازي، 181/32.

(39)_بدائع الفوائد، ابن القيم، 431/2.

(40)_الجدول في إعراب القرآن، محمود بن عبد الرحيم صافي، دار الرشيد، مؤسسة الإيمان، دمشق، ط4، (1418هـ)، 430/30.

[41]_خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد، محمد المبارك، مطبعة نهضة مصر، 1960، ص 25.
[42]_ الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، د-ط، تونس، 1980، ص 231.
[43]_الدراسات الصوتية عند العلماء العرب، حسام البهنساوي، زهراء الشرق، القاهرة، ط1(2005)، ص 77.
[44]_لغة القرآن الكريم في جزءهم، محمود أحمد نحلة، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 348.
[45]_الكليات، أبو البقاء الكفوفي، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت(1419هـ-1998م)، ص 1514.مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979-76/6.
[46]_التفسير القيم، ابن القيم، 313/2.
[47]_التحرير والتنوير، ابن عاشور، 556/30.
[48]_التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، مصر، (1426هـ، 2005م ،ص 70.
[49]_بدائع الفوائد، ابن القيم، 479/2.
[50]_الزينة في الكلمات الإسلامية، أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي، علق عليه حسين بن فيض الله الهمداني، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1958، 179/2.
[51]_ التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، ص 85.
[52]_النحو الوافي، عباس حس، دار المعارف، دط، دت، 258/3.